

الخطاب الديني والاهتمام بالإنسان



«لتوثيق صلة الإنسان بربّه وتأكيد عبوديته له، ولتفعيل وإثراء البُعد الروحي في شخصية الإنسان، شرّع الإسلام برامج عبادية كالصلوة والصيام والحج والعمرة، وسائر الشعائر الدينية، كتلاوة القرآن، والدعاة والذكر والتسبيح.

في ذات الوقت، وجّهت تعاليم الإسلام إلى الاهتمام بخدمة الإنسان، ونفع الناس، بإطعام الجائعين، وكفالة الأيتام، وعون الفقراء، ومساعدة المضعفاء، وقضاء حواجز المحتاجين، وعيادة المرضى، وإغاثة الملهوفين، وكلّ ألوان الإحسان إلى الآخرين، وتقديم الخدمات لهم.

وحين نقرأ النصوص الدينية، نجد اهتماماً متوازياً بالجانبين معاً، بل نجد إشارات في الكثير من النصوص إلى أنّ البرامج العبادية كالصلة والصيام وأمثالها، تستبطن وتستهدف تنمية دوافع الخير تجاه الناس في نفس الإنسان.

كما أنّ^٣ قسمًا من فرائض العبادات هي عطاء للآخرين كالزكاة والخمس والكافارات والأضحية.

إنَّ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ يَجْعَلُ الْحَدَّ الْفَاصلَ بَيْنَ التَّدْبِيرِ الْمَصَادِقِ وَالتَّدْبِيرِ الْمَزَائِفِ، هُوَ مَدْىُ اهْتِمَامِ الْإِنْسَانِ بِمَسَاعِدَةِ النَّاسِ الْمُضْعَفِينَ كَالْيَتَامَىِ وَالْمَسَاكِينَ، وَيُعْتَبَرُ أَدَاءُ عِبَادَةِ الْمَصَلَةِ دُونَ عَوْنَ الْأَيْتَامِ وَالْفَقَرَاءِ تَدِينَاهُ كَذَبًاٌ وَرِيَاءًٌ مُفْضَوْحًاٌ، يَقُولُ تَعَالَى: (أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالْأَدَى) * فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتَامَىَ * وَلَا يَحْضُرُ عَلَى طَعَامِ الْمَسَكِينَ * فَوَيْلٌ لِلْمُصَّالَةِ الَّتِي يَعْمَلُهُمُ الظَّالِمُونَ) (سُورَةُ الْمَاعُونَ).

وفي الحديث عن فريضة الحج، يشير القرآن الكريم إلى أنّ مناسك هذه الفريضة تتضمّن منافع فعلية

للناس، يقول تعالى: (لَيَسْ شَهَدُوا مَذَاجِعَ لَهُمْ) (الحج / 28).

وهناك روايات تشير إلى البُعد الإنساني في فريضة الصيام، وأنّه للتذكير بمعاناة الجائعين والمحاجين.

سئل الإمام الحسين (ع): لم افترض أعز وجل على عبده الصوم؟

فأجاب (ع): "ليجد الغني مس الجوع فيعود بالفضل على المساكين" (المجلسى، محمد باقر، بحار الأنوار، ج 93، ص 375).

وعن الإمام جعفر الصادق (ع): "أمّا العلة في الصيام ليستوي به الغنى والفقير، وذلك لأنّ الغنى لم يكن ليجد مس الجوع فيرحم الفقير، لأنّ الغنى كلّما أراد شيئاً قدر عليه، فأراد أعز وجل أن يسوّي بين خلقه وأن يذيق الغنى مس الجوع والألم ليرقّ على الضعيف ويرحم الجائع" (المصدر السابق، ص 371).

ويرفض القرآن الكريم أن يكون مقاييس البر والصلاح هو الممارسات الشعائرية العبادية فقط، مؤكداً على أنّ البر يتجلّ في الإيمان والعطاء للآخرين، إضافة إلى البرامج العبادية، يقول تعالى: (لَيَسَ الْبَرُّ أَن تُوَلِّوْا وَجُوهَكُمْ فِيَّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغَرِبِ وَلَكِنَّ الْبَرَّ مَنْ آمَنَ بِرَبِّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالذَّبِيْرِيَّيْنِ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبُّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبَيلِ وَالسَّائِلَيْنَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُؤْفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا) (البقرة / 177).

إنّ الصلاة يجب قطعها لإنقاذ حياة إنسان من الخطر، وإنّ الصوم يجب قطعه إذا كان يسبب ضرراً لجنين المرأة الحامل، أو ضرراً للطفل الرضيع بتأثيره على لين مَن ترضعه. ولا يجب الحج إذا كان في ذمة الإنسان حقوق مالية للآخرين، بل لا يعتبر مجزياً عن حجة الإسلام لو قدم الحج على أداء الدين.

وتشير عدد من الأحاديث والروايات إلى أهمية وأولوية خدمة الناس ونفعهم، كما ورد عنه (ص): "الخلق عيال أعز، فأحبّ الخلق إلى أعز مَن نفع عيال أعز" (الهندي، علي المتقى، كنز العمال، حديث رقم 16171).

وقال له رجل: أحبّ أن أكون خير الناس.

فقال (ص): "خير الناس مَن ينفع الناس، فكن نافعاً لهم" (المصدر السابق، حديث رقم 44154).

وعنه (ص): "خلتان ليس فوقهما من البر شيء: الإيمان بما والنفع لعباد الله" (المجلسى، محمد باقر، بحار الأنوار، ج 74، ص 137).

ورُوِيَ عن الإمام محمد الباقر (ع): "لأنّ أعمّل أهل بيته من المسلمين: أسد جوعتهم، وأكسو عورتهم، وأكف وجوههم عن الناس أحب إليّ من أن أحج حجة وحجة ومثلها ومثلها حتى بلغ عشرًا ومثلها ومثلها حتى بلغ السبعين" (المصدر السابق، ج 71، ص 329).

وعن الإمام جعفر الصادق (ع): "والذي بعث محمداً بالحقّ بشيراً ونذيراً، لقضاء حاجة أمرئ مسلم وتنفيس كربته أفضل من حجة وطواف وحجة وطواف حتى عقد عشرًا ثم خلا يده وقال: اتقوا الله ولا تملّوا من الخير ولا تكسلوا، فإنّ الله عز وجّل ورسوله (ص) غنيّان عنكم وعن أعمالكم وأنتم الفقراء إلى الله عز وجّل وإنّما أراد الله عز وجّل بلطفه سبباً يدخلكم به الجنّة" (المصدر السابق، ص 318).

هذا الدفع والاهتمام الذي نجده في النصوص الدينية بخدمة الناس ونفعهم، لا نراه منعكساً بنفس المستوى على الخطاب الديني، الذي غالباً ما يركّز على الجانب العبادي، ولعلّ من نتائج ذلك ضعف التفاعل والإقبال على العمل الخير الإنساني في مجتمعاتنا الإسلامية لدى المقارنة بتقدّم هذا الجانب عند المجتمعات الأخرى، وكذلك بالنظر لعمق الحاجات الملحة في مجتمعاتنا.

وفي المجتمعات الأخرى تتكون مؤسسات للعمل التطوعي الإنساني تتحرّك على مستوى العالم، كمنظمات حقوق الإنسان، وحماية البيئة، وأطباء بلا حدود، وحملات الإغاثة للبلدان المنكوبة، ومؤسسات رعاية المعوقين، والاهتمام بالأمراض الخطيرة كالأيدز والسرطان.

إنّ خطابنا الديني يحتاج إلى اهتمام أكبر بالقضايا الإنسانية، لحشد الجهود لمعالجة كثير من الحاجات ومتطلبات الحياة في مجتمعاتنا التي تعاني من انتشار الأممية والفقر ونقص الخدمات.

إنّ إقبال الناس في مجتمعاتنا على بناء المساجد لا يوازيه إقبال على بناء الجامعات والمكتبات، ومواطبة البعض على تكرار الحج والعمرة لا يزاحمه توجه لكافلة الأيتام ومساعدة المعاقيين. وحرص البعض على السعي لصلة الجماعة لا يماثله حرص على السعي للاهتمام بالشأن العام.

وقدرأينا كيف تفاعلت المجتمعات الغربية مع كارثة (السومني) التي أصابت دول جنوب آسيا مطلع العام 2005 وذهب فيها مئات الآلاف من البشر، وملأين المشردين، ودمرتآلاف القرى والمدن، فهرع أبناء المجتمعات الغربية لتقديم العون والمساعدة، مبادرين للاتصال بالمنظمات الخيرية والإغاثية، وكان معدل التبرّعات في بريطانيا مثلاً وصل إلى 15 ألف جنيه إسترليني في الدقيقة الواحدة، حسب (بي.بي.سي).

وحسب تقرير صحفي، كان معدل التبرّعات بواقع مليون جنيه في الساعة، عدا التبرّعات العينية كالملابس والأغذية والأدوية، وجميع قنوات التلفزة خصمت خطوطاً وحسابات للتبرّعات، وظهرت مئات المواقع على الإنترنت للتبرّع بالمعلومات عن المفقودين من كلّ الجنسيات.

بينما كان التفاعل في مجتمعاتنا الإسلامية بطريقاً خافتاً، والأسوأ من ذلك صدور تصريحات وخطابات من بعض الجهات الإسلامية، جارحة لمشاعر تلك الشعوب المنكوبة، بالقول إنّ ما حصل هو عقوبة من الله تعالى لأنحراف تلك المجتمعات وفسادها.

وذلك يكشف عن تبلّد في المشاعر والأحساس الإنسانية لابدّ من مواجهته بتعاليم الإسلام الأصيلة التي توقد الوجدان وتبعث دوافع الخير والحبّ في نفس المسلم تجاه كلّ إنسان، بل كلّ كائن حي كما ورد في الحديث: "في كلّ ذات كبد حرّى أجر" (ابن حنبل، الإمام أحمد، مسند الإمام أحمد بن حنبل، حديث رقم 17724).

- حق الله تعالى وحقوق الإنسان:

جاءت الرسالات الإلهية لترشد الإنسان إلى أداء حقّ خالقه عليه، بمعرفته والإيمان به وتوحيده وعبادته وطاعته، هذا أوّلاً. وثانياً لتوجيهه لأداء حقوق الناس لتنظم الحياة الاجتماعية بين بني البشر.

إنّ بعض آيات القرآن الكريم تشير إلى هذا الهدف كمحور أساس لرسالات الأنبياء، يقول تعالى: (لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا إِنَّا بِالْبَأْيَنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُولُوا النَّاسُ

كما تشير بعض الأحاديث والروايات إلى أن "إله تعالى يسخطه الاعتداء على حقوق الناس أشد" من ما يسخطه الاعتداء على شيء من حقوق عبادته وطاعته، عدا الشـرك باـهـ تعالى.

جاء عن رسول الله (ص) أذـنه قال: "الظلم ثلاثة: فظلم لا يغفره الله، وظلم يغفره الله، وظلم لا يتركه، فأمـا الظلم الذي لا يغفره الله فالشـرك، قال الله تعالى: (إنـ الشـركـ لـ ظـلـمـ عـظـيمـ)، وأمـا الظلم الذي يغفره الله تعالى فظلم العباد أنفسهم فيما بينهم وبين ربـهم.. وأمـا الظلم الذي لا يتركه الله، فظلم العباد بعضهم بعضاً حتى يدين بعضهم من بعض" (الهندي، علي المتقى، كنز العمال، حديث رقم 7588).

ومثله جاء عن الإمام علي بن أبي طالب (ع) في نهج البلاغة: "ألا وأنـ الظلم ثلاثة: فظلم لا يغفر، وظلم لا يترك، وظلم مغفور لا يطلب.. فأمـا الظلم الذي لا يغفر فالشـرك باـهـ، قال الله تعالى: (إنـ لا يـغـفـرـ أـنـ يـشـرـكـ بـهـ). وأمـا الظلم الذي يغفر، فظلم العباد بعضهم بعضاً. القصاص هناك شديد، ليس هو حرحاً بالمعنى، ولا ضرباً بالسياط، ولكنـهـ ما يستصغر ذلك معهـ" (الشـريف الرضـيـ، نهج البلاغـةـ، خطـبةـ 176).

والنصوص الدينية التي تحذر من الظلم والعدوان على حقوق الآخرين كثيرة، كقوله تعالى: (وـاـهـ لا يـحـبـ الطـالـمـينـ) (آل عمران/ 57)، (وـلا تـعـتـدـوا إـنـ لا يـحـبـ المـعـذـدـينـ) (البقرة/ 190)، وما رـوـيـ عنهـ (صـ): "اتـّقـوا الـظـلـمـ فـإـنـهـ ظـلـمـاتـ يـوـمـ الـقيـامـةـ" (الهنـديـ، عليـ المـتقـىـ، كـنزـ العـمـالـ، حـدـيـثـ رقمـ 7598).

لكنـ ما يـلاحظـ علىـ الخطـابـ الـديـنـيـ، تـركـيزـهـ عـلـىـ الدـفـاعـ عـنـ حقوقـ اللهـ تعالىـ، وـضـعـفـ اـهـتمـامـهـ بـالـدـفـاعـ عـنـ حقوقـ الإنسانـ.

تجـدـ ذـلـكـ عـلـىـ مـسـتـوـيـ الـبـحـثـ الـفـكـريـ وـالـفـقـهيـ، حيثـ تـمـتـلـيـ الـمـكـتبـةـ الـإـسـلـامـيـةـ مـنـ الـبـحـوثـ الـعـقـدـيـةـ وـالـفـقـهـيـةـ الـعـبـادـيـةـ، كـأـحكـامـ الـمـلـاـةـ وـالـصـيـامـ وـالـحـجـ، وـالـتـيـ تـسـتـغـرـقـ مـحـلـدـاتـ كـثـيرـةـ، وـتـتـفـرـعـ مـسـائـلـهـاـ إـلـىـ مـخـتـلـفـ الـصـورـ وـالـاحـتـمـالـاتـ، حتـىـ الـخـيـالـيـةـ مـنـهـاـ، لـكـنـ قـضـيـاـ حـقـوقـ الـإـنـسـانـ، لمـ يـتـبـلـوـرـ لـهـاـ عـنـوانـ جـامـعـ فـيـ الـفـكـرـ وـلـاـ فـيـ الـفـقـهـ، وـلـاـ تـُـطـرـحـ إـلـاـ يـشـكـلـ عـاـبـرـ ضـمـنـ أـبـوـابـ فـقـهـيـةـ مـخـلـفـةـ.

وـعـلـىـ مـسـتـوـيـ الإـلـاعـمـ وـالـتـقـيـيفـ الـجـماـهـيرـيـ، غالـباـ ماـ يـتـحدـثـ الـخـطـبـاءـ بـالـحـثـ علىـ أـدـاءـ الـوـاجـبـاتـ الـشـرـعـيـةـ الـعـبـادـيـةـ، وـالـتـحـذـيرـ مـنـ الذـنـوبـ وـالـمـعـاصـيـ المرـتـبـطـةـ بـالـجـوـانـبـ الـشـخـصـيـةـ كـالـزـنـاـ وـشـرـبـ الـخـمـرـ وـعـدـمـ التـزـامـ النـسـاءـ بـالـحـجـابـ، لـكـنـ الـحـدـيـثـ عـنـ حـقـوقـ الـإـنـسـانـ السـيـاسـيـ وـالـاجـتمـاعـيـ وـالـفـكـرـيـ، وـالـتـحـذـيرـ مـنـ اـنـتـهـاكـهاـ قـلـيلـ نـادـرـ.

وـإـذـ لـاحـظـ الدـعـةـ الـإـسـلـامـيـونـ تـجاـوزـاـ مـنـ سـلـطةـ تـجـاهـ قضـيـةـ دـيـنـيـةـ كـالـصـلـاةـ أوـ الصـومـ، أوـ تـهـاـوـنـاـ تـجـاهـ بـعـضـ الـمـعـاصـيـ كـالـخـمـورـ وـالـسـفـورـ وـمـاـ أـشـبـهـ، تـقـومـ قـيـاـ مـتـهـمـ وـلـاـ تـقـعـدـ، لـكـنـهـمـ لـاـ يـبـدـوـنـ اـهـتمـاماـ فيـ الـغالـبـ للـتـجـاـوزـ عـلـىـ حـقـوقـ الـمـوـاـطـنـيـنـ، أوـ اـخـتـلـالـ مـيـزـانـ الـعـدـالـةـ، أوـ إـهـمـالـ مـصـالـحـ الـنـاسـ وـمـطـالـبـهـمـ.

إـنـهـمـ يـغـضـبـونـ لـمـشـهـدـ اـمـرـأـ سـافـرـةـ، لـكـنـهـمـ يـغـضـبـونـ الـطـرفـ عـنـ مـشـاهـدـ الـفـقـرـ وـالـحرـمانـ، وـيـحـتـجـونـ عـلـىـ الـتـجـاهـرـ بـالـإـفـطـارـ نـهـارـ رـمـضـانـ، لـكـنـهـمـ يـسـكـنـونـ عـلـىـ التـجـهـرـ بـالـفـسـادـ السـيـاسـيـ وـالـاقـتصـاديـ.

وـحـينـ تـتـكـوـنـ هـيـنـاتـ أـوـ لـجـانـ لـلـأـمـرـ بـالـمـعـرـوفـ وـالـنـهـيـ عـنـ الـمـنـكـرـ، فـإـنـ حدـودـ الـمـعـرـوفـ وـالـمـنـكـرـ عـنـهـمـ لاـ تـشـمـلـ الـأـبعـادـ السـيـاسـيـ وـالـاقـتصـاديـ وـالـاجـتمـاعـيـ، وـإـنـهـمـ تـبـقـيـ فـيـ إـطـارـ الـجـوـانـبـ الـعـبـادـيـةـ وـالـمـخـالـفـاتـ الـشـرـعـيـةـ الـخـصـصـيـةـ.

هذا الخلل في الخطاب الديني هو أحد تجليات ضعف التوجه الإنساني، عند الجهات المتصدية لإنتاج هذا الخطاب.

- الانتصار للضعف أم إخضاعه؟

في العلاقات الاجتماعية، هناك من يكون في الموقع الأقوى، ومن هو في موقع الأضعف، غالباً ما يحصل الحيف والجور من الطرف الأول تجاه الثاني.

لذلك تركز التوجيهات وال تعاليم الدينية على تحذير من يكون في موقع أقوى أن لا يدفعه ذلك لإساءة استخدام موقعه تجاه الآخرين. كالحاكم تجاه رعيته، والزوج تجاه زوجته، والأب تجاه أبنائه، والغني تجاه الفقير، وربّ الثروة والعمل تجاه العمّال والموظفين.

صحيح أنّ هناك توجيهات للطرف الآخر بالصبر والاستيعاب، لكن ليس إلى حدّ التنازل عن الكرامة وسحق الشخصية. كما أنّ هناك تعليمات وتشريعات تدعو إلى الدفاع عن الحقوق، وحماية المصالح المشروعة.

ونلاحظ هنا على الخطاب الديني أزّه غالباً ما يتوجّه إلى الأضعف لتهديته وإخضاعه للأقوى، عبر التأكيد على حقوق الحاكم على رعيته، والزوج على زوجته، والأب على أبنائه، وربّ العمل على الموظفين. كما يؤكد هذا الخطاب على الرعية والزوجة والأبناء والعمّال أن لا يقصدُوا في واجباتهم تجاه الطرف الآخر.

أمّا تحذير الحاكم من الجور على الرعية، والزوجة من الظلم لزوجته، والأب من التقصير في حقّ أبنائه، وربّ العمل من الإساءة لموظفيه.. وأمّا توعية الناس بحقوقهم، وإرشادهم لأفضل طرق تحصيلها والدفاع عنها، فهو ما يقل التعرّض له وتناوله في ساحة الخطاب الديني.

- تطوير الخطاب إنسانياً:

إنّ تطوير خطابنا الديني إنسانياً ليس مطلباً كمالياً، وليس قضية هامشية، بل هو ضرورة ملحة تقع في الصميم من قضايا الأُمّة واحتياجاً لها.

إنّه سبيل إلى تحقيق مهام أساسية تأخذ الأُمّة كثيراً عن إنجازها وتحقيقها، وأبرزها ما يلي:

أولاً: إنجاز تقدّم على مستوى التنمية الإنسانية في مجتمعنا، حيث يعيش الإنسان واقعاً متخلّفاً يفتقد فيه مقومات بناء الحياة الفاضلة، والتتمّتع بحقوقه الإنسانية المشروعة.

ثانياً: النجاح في صناعة العلاقة السليمة مع الآخر داخل الأُمّة والوطن، وفي الخارج مع سائر الأُمم والحضارات، حيث تعاني مجتمعاتنا من اضطراب العلاقة بين فئاتها وشرائحها، وحيث أقحمت الأُمّة في معركة صدام مع الحضارات والشعوب الأخرى بسبب توجهات التطرف والإرهاب.

ثالثاً: الإسهام في خدمة القضايا الإنسانية على الصعيد العالمي، لتكون الأُمّة بمستوى ما تتبنّاه من قيم الإسلام ومفاهيمه وشعاراته الرسالية العظيمة.

إن "القرآن يُقدّم الإسلام م مشروعًا للإنسانية جماء (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَفُوءًا لِّلنَّاسِ) (سبأ / 28)، ورسالة ورحمة وسلام لكلّ شعوب العالم (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّعَالَمِين) (الأنبياء / 107)، وأنّ "أُمّةً" الإسلام يجب أن تكون رائدة الخير في المجتمع البشري (كُنْتُمْ خَيْرَ أُمّةٍ أُخْرَى جَتَتْ لِلنَّاسِ) (آل عمران / 110).

فلا بدّ من خطاب يؤهّل الأُمّة لهذا الدور، ويُقدّم الإسلام للعالم على هذا المستوى.►

المصدر: كتاب الخطاب الإسلامي وحقوق الإنسان